لطف الله سليمان

«أريد أن أدفن فى مصر، وأرجو أن تنثروا رمادى بين أمواج النيل عند مدينة المنصورة».
لطف الله سليمان

بحثت عنه طويلا.. وعندما عثرت عليه وأجريت حوارا معه كان على عتبات الرحيل، قابلته فى مطعم باريسى أنيق بدعوة من الصديق المشترك يوسف حزان، وتركز الحوار أساسا على ترجمته الفرنسية لكتاب أسهمت فيه «ضد التطرف المتأسلم»، لكننى لم أفلت الفرصة واعتصرت منه كل ما أريد.

قال لطف الله: «أنا من أسرة عريقة جدا لكنها فقيرة جدا، أصلها سورى لبنانى، كنا نقيم فى المنصورة فى حى الحسينية. تعلمت فى مدرسة الفرير وكانت طائفة الروم الكاثوليك تدفع لى مصروفات الدراسة، تعرفت وأنا طفل بسيدة يهودية، زوجها، برغم يهوديته، كان من أبطال الثورة العرابية، احتضنتنى، علمتنى، شرحت لى أسرار الحياة، قدمت لى كنوزا من المعرفة وأنا لم أزل طفلا فى التاسعة، كانت المنصورة تموج بمظاهرات صاخبة وانغمست فيها، وفى الثانية عشرة من عمرى كنت أواظب على القراءة فى مكتبة المنصورة، وفى سنة ١٩٣٦ عملت فى مكتبة بريطانية ورأيت هناك التفريق بين المصرى والأجنبى، وفى ١٩٣٩ زرت النادى الديمقراطى الذى أسسه هنرى كورييل، ومن المنصة هاجمت اتفاق ستالين – هتلر، فهاجمنى الحاضرون وأنزلونى بالقوة من فوق المنصة وأنقذنى من أيديهم جورج حنين وأصدقاؤه، وكانوا يميلون نحو التروتسكية، ومنذ ذلك الحين التصق بى وصف التروتسكية، لكنهم كانوا يعيشون فى عالم مخملى رقيق، وشعرت معهم أننى زنجى يعيش فى عالم من الأرستقراطية البيضاء، وكان الفارق بينى وبينهم هو المال.

وقررت التخلص من ثياب الزنجى فسرقت كمية هائلة من المال من بنك فى المنصورة وأسرعت إلى القاهرة حاملا كومة كبيرة من المال وقدمته للمجموعة التى كانت مجتمعة فى جروبى، ورفضوا أخذ المال وأمرونى بإعادته، ولم أفعل.

فقررت أن أستخدم المال فى تحرير الفلاحين، أو هكذا تخيلت، استأجرت ٢٥٠ فدانا من أسرة سراج الدين بالقرب من المنصورة، كان أجر العامل الزراعى ٣ قروش فى اليوم فمنحتهم ١٧ قرشا يوميا وساعة راحة ظهرا، أستغلها فى أن أجلس معهم وأقرأ لهم الصحف وأحدثهم فى السياسة، وعندما هاجمت الدودة أرض الباشا حاول تشغيل عمالى عنده فرفضوا، مطالبين بسبعة عشر قرشا فى اليوم، صعق الباشا وقطع المياه عن أرضى حتى مات الزرع وتركت المشروع، وعندما أصبح سراج الدين وزيرا (١٩٤٢) أمر باعتقالى فى الطور.

وفى عام ١٩٥٧ أنفقت ما تبقى من المال المسروق فى تأسيس دار النديم للنشر بهدف نشر الثقافة التقدمية، وفى ١٩٥٩ اعتقلت وصودرت الدار وكانت تجربة الاعتقال فى الواحات مريرة جدا، وعندما أفرج عنى أخذت أولادى ورحلت إلى الجزائر، كنت أتصور أننى أسافر من القاهرة إلى طنطا، لكننى رأيت هناك غربا مزيفا وفرنسا مغشوشة، أصدرت هناك مجلة، لكن مقالاتى لم تعجبهم فرحلت إلى فرنسا، حيث أصبحت متخصصا فى قضايا الشرق الأوسط. وفى مايو ١٩٦٧ شعرت بأن الجو قد تكهرب وأن مصر ستهزم إذا قامت حرب. وكتبت مقالا لجريدة «نوفيل أوبزر فاتير» قلت فيه ذلك ورفضوا نشره لأنهم يريدون مزيدا من التعاطف مع إسرائيل، وبعد الهزيمة كرست كل جهودى لمواجهة النفوذ الصهيونى فى فرنسا، كتبت مئات المقالات وحضرت عشرات الندوات أدافع عن مصر وأهاجم إسرائيل، الكتاب والسياسيون العرب فى فرنسا صمتوا، أنا وحدى حملت العبء واكتسبت شهرة عالية جدا وسط الجاليات العربية، حتى إن أصحاب المطاعم العرب وسائقى التاكسى كانوا يرفضون أن أدفع، وبعد عشرات من الندوات والمناظرات التليفزيونية الحادة أصبحت نجما، بل ممثلا للعرب وللعروبة فى فرنسا، وذات يوم علق مكسيم رودنسون على إحدى مقالاتى قائلا «إنه يهذى»، قالها رغم أنه كان متعاطفا معنا لكنه كان يخشى على من تشددى ضد إسرائيل والصهيونية، ورددت عليه بمقال قلت فيه «وماذا بقى لنا غير الهذيان»، وباختصار أصبحت نجما، واعتبرنى اليمين الفرنسى العدو

الرئيسى، وكتب أحدهم مقالا عنيفا ضدى قال فيه: «هذا الفلاح المصرى خلع جلبابه، ولبس لباسنا، وسرق لغتنا وأقام فى بلادنا كى يحاربنا»، واعتبرت هذا المقال أغلى وسام على صدرى، وبعد انتصار ١٩٧٣.. انتهى كل شىء بالنسبة لى، ونسينى الناس والجمهور العربى والسفارات العربية التى كانت تلاحقنى بدعواتها.. وعشت وحيدا».

كان الرجل مجهدا من كثرة الحديث المتحمس، ومع ذلك ظل يناكفنى حول الكتاب الذى يترجمه ويفرض على رأيه فى كتابتى وفى رؤيتى ويحاول أن يلعب دور الأستاذ القوى الإرادة وليس دور المترجم، وأعترف أننى تنازلت أمامه كثيرا فأصبح أكثر من مترجم.

وفيما نشرب «الاكسبرسو» بعد الغداء قال فى هدوء وقور: «لقد عدت إلى مصر عام ١٩٧٦ وعرض على بعض المسئولين البقاء اعترافا بموقفى بعد الهزيمة قلت لهم: «إن بقيت لن أسكت والأفضل أن أبقى بعيدا لأدافع عن الخطوط العريضة»، وعاد إلى فرنسا.

وفيما أصافحه أمسك بيدى ولم يتركها وكأنه يشعر أنها آخر خيط بينه وبين مصر، قال بصوت تبلله الدموع: «عشت فى فرنسا ٣٢ عاما، أولادى نشأوا فى فرنسا، وأحفادى فرنسيون، الجيل المصرى الجديد لا أعرفه، حتى إننى أشعر بدهشة شديدة من بعض مقولاتك التقدمية، قد أتفق معها، لكننى أدهش كيف وصلت هذه الأفكار إليكم وكيف ترددونها بهذه الطلاقة والبساطة والفاعلية، كنت أتمنى أن أكتب وصية أعلن فيها حبى لمصر ولنيل المنصورة، لكننى أكره مثل هذه العبارات المصطنعة والتى يكتبها أصحابها متصورين أن التاريخ سوف يسجلها، إننى فى السادسة والسبعين، وهذا يكفى، أتصور أن يكون آخر أعمالى الانتهاء من ترجمة كتابك، ولا بأس بذلك فهو إسهام فى معركة مصر ضد المتأسلمين، كما تحب أن تسميهم، وعبارتى الأخيرة لكم هى عندما أموت أكون مت، وكفى!».

وأسرع لطف الله سليمان فى ترجمة الكتاب وبعد صدوره بعدة أسابيع.. رحل.